

# مدينة آسفي «الخزفية» بالمملكة المغربية منارة المحيط الأطلسي وملقى الحضارات القديمة

نجيب خليفة: مكتب الدار البيضاء  
عن: قافلة التاريخ



آسفي ليلا

لم يحدد بالضبط العصر الذي أنشئت فيه مدينة آسفي بالمملكة المغربية، فهي قديمة قدم التاريخ نفسه. كثر القيل والقال حول تأسيسها وسال مداد غزير بشأن تسميتها ، فـ (فرانسو بيرجي) ذكر أن سكان مدينة صور الفنيقية أنشؤوا بأسفي وكالة تجارية في القرن 12 قبل الميلاد، وأسكنوا فيها المهاجرين الكنعانيين الذين طردوا على يد الغزاة العبرانيين. أطلق على هذه المدينة اسم أعظم سيد مقدس ببلد كنعان وهو «أسفا».

وافترض ليون كودارد أن مدينة أسفي من بين خمسة مرافئ أسسها حائون القرطاجي، وهذا ادعاء لا يمكن القطع بصحته نظرا للشكوك التي أحيطت بتقرير رحلة حائون القرطاجي. ويتبرر موثبي إلى أن نص رحلة حائون عبارة عن أكبر أكلوبة في تاريخ الملاحة للعصر القديم. وجاء على لسان الحسن الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» أن مدينة أسفي بناها الأفارقة الأقدمون. أما العلامة ابن خلدون فأكد أن استقرار الأمازيغ بالمدينة كان منذ أحقاب قديمة يصعب تحديدها، ويذهب البكري في نفس اتجاه ابن خلدون حيث قال إن كلمة

أسفي مشتقة من الكلمة الأمازيغية - أسيف - التي تعني مجرى مائي. وبالفعل فإن مدينة أسفي يخترقها وادي التسعة (أسيف) ويصب فيها. وللأمازيغ دور بارز قبل الإسلام في تسييد المنارات على السواطي لهداية السفن الأمازيغية أثناء عودتها ليلا. ويمكن أن يكون بهذا البلد بعض هذه المنارات، التي تعني بالأمازيغية أسفو، فسمي بها. وربط الإدريسي أصل اسم مدينة أسفي بقصة قتيبة سماهم المغررين، خرجوا من اسبونة (لسبونة) وركبوا البحر المظلم ليقفوا على نهايته فوصلوا إلى موضع أسفي، ولما رأهم جماعة من الأمازيغ،

## أسفي من البحر



## باب أثري



وعرفوا أمرهم، قال زعيمهم  
وا أسفي تحسرا على ما قاسوه  
فسمي المكان بتلك الكلمة.

وبعيدا عن التضاربات في  
أصل تسمية مدينة أسفي، فإن  
الأكيد هو أنها حظيت منذ القدم  
بأهمية بالغة حتى أن اسمها  
ورد ضمن أمهات المعاجم  
التاريخية، كمعجم البلدان  
لياقوت الحموي، كما ذكرها  
الرحالة المغربي الشهير ابن  
بطوطة في مذكراته الشهيرة  
التي ترجمت إلى أكثر من  
عشرين لغة.

أسفي الوجهة المفضلة للكثير  
من الأسر

شكلت أسفي وجهة مفضلة  
للعديد من الأسر الأندلسية

ملك إنجلترا تشارلز الأول إلى مولاي  
عبدالله. وهكذا تحولت أسفي إلى ميناء  
دبلوماسي ترسو به السفن الأوروبية التي  
ترغب في إبرام الاتفاقيات الدولية  
بالعاصمة مراکش.

كانت أسفي أهم الموانئ المغربية، مما  
جعلها تشهد رحلات علمية شهيرة (راع  
69--70 الطوف) (74). وقدما اتخذها  
المرابطون مركزا لتجميع قوافل الذهب  
الإفريقي الذي ينقل عبر السفن إلى

والعربية من تطوان وفاس والرباط وسلا  
؛ كما وصفت بأنها مدينة دبلوماسية  
يقطنها السفراء والقناصل، مثل غيوم  
بيرار الذي مثل فرنسا هنري الثالث لدى  
المولى عبد الملك، وقنصل الدانمارك  
جورج هورست، وجون موكي صيدلاني  
الملك هنري الرابع؛ كما كان المبعوثون  
البريطانيون يقدون إلى أسفي قبل التوجه  
إلى مراکش، حيث نزل بالمدينة البحار  
الإنجليزي هاريسن لتسليم رسالة من

الأندلس لسك النقود، وبذلك، أصبحت أسفي مرسى الإمبراطورية المرابطية. كل هذه الخاصيات جعلت من مدينة أسفي محط أطماع القوى الإستعمارية الأوروبية، إذ جعل منها البرتغاليون ميناء رئيسيا لتصدير الحبوب والسكر والصوف. ومع توافد جالية إنجليزية كبيرة على المدينة، أقام بها الإنجليز مركزا تجاريا تم أنشؤوا في القرن 19 مخزنا لتجميع كل ما يصدر من أسفي إلى إنجلترا. غير أن معاول الهدم طالتهما ليتم تحويل مكانهما إلى ساحة مولاي يوسف.

وظهرت في مدينة أسفي دبلوماسية السكر على حد تعبير المؤرخين الأوروبيين، حيث كان السكر القادم من مدينة شيشاوة في مقدمة المواد التي تسوقها المدينة لإنجلترا، لأن المملكة لم تكن تقبل في مطبخها -على ما يقوله هنري روبيرتس- إلا السكر المغربي. وكانت أسفي منطلقا لملح البارود المغربي الذي لم يكن يوازيه أي ملح في العالم، والذي كان الدفاع الحربي الإنجليزي يعتمد، فضلا عن كون المدينة كانت تزود أوروبا بأجود الصقور المغربية التي ساهمت في تطوير هواية





وملح الختام، أغرت أسفي بلذائذ أسماكها الجيران فجاؤوها محتلين. واهتم السلاطين بأسفي فأقاموا بها دارا للسكة ما بين سنة 1716 و 1830م، التي كانت توجد حيث يوجد حاليا ضريح «سيدي بوذهب»، حسب ما أورده الكانوني الذي يقول: «دار السكة كانت تعالج الذهب والفضة فكانت تعرف بدار الذهب». ولعل أهم حدث عرفته أسفي، هو وصول القائد الإسلامي عقبة بن نافع سنة 681 م، حيث ترك صاحبه تباكر

القنص بالصقر..  
**أسفي مدينة العبادة والصناعة**  
 مدينة أسفي هي كذلك مدينة الجوامع المنتشرة والأربع والأربعين ولما كما أنها روضت الطين منذ العصور الغابرة وجعلته يستجيب للإحتياجات اليومية، وحولته إلى لغة شعرية أو لوحة تشكيلية تمتاز فيها الألوان بتناسق بديع. وأسفي أفلحت في تحدي أمواج البحار حيث اشتهر بها الربابنة والرياس الكبار حتى أضحت عاصمة العالم في صيد السردين.

لتعليم الأمازيغ اللغة العربية والتعاليم الإسلامية، وكان لهذا التابعي رباط مشهور يعرف إلى اليوم برباط سيدي تديكر، وهو من أقدم الرباطات بالمغرب، كان يحضره العلماء ويقام به موسم سنوي حضره بن الزيات وسجل أخباره. وإذا كانت بعض النواحي معروفة بما يوجد بها من كبار الصلحاء، فذلك الشأن بأسفي التي صارت مقرونة بذكر الولي الصالح أبي محمد صالح الذي أنشأ رباطه الشهير بأسفي، وأسس 46

رباطا تربط المغرب بالمشرق عن طريق الحج. فالحاجة كانت ماسة إلى إتعاث الجانب الروحي خاصة أن أسفي عرفت النحلة البرعواطية. وتزامنت الدعوة إلى الحج مع الموقف الذي تبناه فقهاء المغرب والأندلس في إسقاط شعيرة الحج، حماية للمسلمين من مخاطر الطريق.

### المعالم الأثرية لمدينة أسفي

جبل يغود : أدت الحفريات التي تم القيام بها بهذا الموقع إلى اكتشاف بقايا الإنسان



## شارع الرباط- أسفي



أبراج السور : يحيط بالمدينة القديمة لأسفي سور سيده البرتغاليون في مطلع القرن 16م على أنقاض السور الموحدى لصد هجمات السعديين. يبلغ طوله 1600 متر، تتخلله تسعة أبراج عالية هي برج الرباط- برج الناصر- برج امستوكي- برج الدار- برج الغازي- برج باب الشعبة- برج القواس- برج السلوقية وبرج خزانة البارود. المسجد الأعظم : يوجد بداخل المدينة القديمة. وقد بني في عهد الدولة الموحدية، وكان متصلا بالمئذنة الموجودة حاليا جانب السور. استعمل المسجد الأعظم في عهد

وخاصة مجتميين مع أدوات ترجع إلى الفترة الموسنيرية وعظام حيوانات. جعلت دراسة عظام الإنسان الباحث « إنوسى» يصنفها في عداد الإنسان النيوندرتالي، لكن الدراسات الحديثة أثبتت أن إنسان جبل يغود هو إنسان عاقل بدائي.

يمكن أن يوضع تاريخ الموقع بين 90.000 و 190.000 سنة، الشيء الذي يبين أن إنسان يغود يمكن أن يكون قد عاش في نفس الفترة أو في عهد سابق لأول إنسان عاقل عثر عليه بالشرق الأوسط.